

المحاضرة الثامنة: الحكاية الخرافية "ولد المتروكة"

• نموذج من الحكايات الخرافية (حكاية ولد المتروكة)

هي حكاية متداولة في منطقة المغرب العربي، تندرج ضمن النوع الحكائي ذي الخصائص الشبه ثابتة التي استخلصها الدارسون، من ذلك تصنيف "ستيث طومسون" و"آنتي آرني" العالمي. هذا النوع الحكائي هو الحكاية الخرافية.

• نصّ حكاية ولد المتروكة:

كان هناك ملك، شعر بالقلق وهو في قصره، فخرج يتجول في الغابة، فاعترض طريقه عفريت، وأخذ منه عهداً بأن لا يذكر للحكام الذين يقتفون أثره بأنه قد رآه، ثم اختفى في مغارة. التقى الملك بالحكيم الساحرين، وعندما سألاه عن مكنم العفريت، أنكر رؤيته له، لكنهما اكتشفا ادعاءه عن طريق الكهانة، فطلبا منه أن يختار بين إرشادهما إلى المخبأ أو قتله، وأخذا يضربانه إلى أن أذعن، ودلهما على المغارة التي يختفي فيها العفريت.

أقام الساحران عند باب المغارة طقوساً، فأوقدا البخور، وقرأ التعاويذ، فخرج العفريت وقد تحول إلى ثعبان صغير منهوك القوى، فأدخله في قسبة ثم سجنه في صندوق، وأكمل طريقهما بصحبة الملك. عندما تعبوا من السير، جلسوا ونام الساحران، وظل الملك يقظاً وقد أحس بالندم على نقضه العهد الذي أعطاه للعفريت، ففك أسره عن طريق فتح الصندوق، ونزع سداة القسبة، فتسرب دخان كثيف منها، وتصاعد في السماء ليشكل صورة عفريت ضخم الجثة، قام بقتل الساحرين، وعاقب الملك على مخالفته العهد، فنفخ على وجهه وأحال لونه من البياض إلى السواد الفاحم، لكنه اعترافاً له بجميل تحريره من القمقم الذي كان مسجوناً فيه، دله على دواء يعيد لونه الطبيعي، وهو "ورق بسط الثعابين"، وطلب منه أن يرسل أبناءه بغرض استجلابه من أرض بعيدة. عندما عاد الملك إلى قصره أنكره أهله، فذكر لهم علامات مميزة، فتعرفوا عليه، وشرح لهم ما حدث له، وذكر لهم الدواء الذي وصفه له العفريت، وقوله بأن أبناءه بإمكانهم استجلابه من البلاد البعيدة.

كان للملك زوجتان، إحداهما له منها ولدان، تلقى هي وولداها منه عناية كبيرة، بينما تتعرض الزوجة الثانية التي لها ولد واحد إلى الإهمال والترك فسميت "المتروكة" وسمي ولدها بابن المتروكة، وكان الملك لا يعتني بهما، ولا يسأل عنهما.

عندما شاع خبر الأذى الذي أصاب الملك بتحول لونه إلى السواد، أرادت زوجته الأولى (المعتى بها) الاستئثار بخدمة زوجها، فكلفت ولديها بمهمة البحث عن الدواء الشافي، والرحيل إلى البلاد البعيدة، من أجل الحصول عليه. أما الزوجة الثانية فقد بقيت حزينه لأن ابنها كان طائشا سيء السمعة بسبب ما يتعرض له من إهمال من طرف والده. عندما عاد ابنها في ساعة متأخرة من الليل، حادثته في الأمر وشكت له ما تعانيه من شعور بالغبن الناتج عن وضعيتهما في أسرة الملك.

قرر الولد أن يلتحق بأخويه، ويرحل لطلب الدواء الموصوف، وذلك لكي يبرهن لأبيه عن جدارته، وهكذا خرج في إثر أخويه. وقد لحقهما عند أخوالهما، الذين نصحوهما بعدم الإقدام على المغامرة نظرا للمخاطر التي تحف بالطريق وصعوبة الوصول إلى البلاد الموصوفة. أذعن الشقيقان ولدا المرأة الأولى بينما قررا ابن "المتروكة" مواصلة الطريق لوحده...

يجد "ولد المتروكة" في طريقه الغولة وقد تربعت على الأرض قاذفة بثدييها الكبيرين من على كتفيها، فنزلا على أعلى ظهرها. جاء ابن المتروكة من الخلف وارتمى عليها وقام برضعهما، وأنقذ نفسه بذلك، لأنها اعتبرته كأبنائها، وامتنعت عن التهامه، بل قامت بمساعدته ودلته على الطريق ووصف له الطريقة التي يجتاز بها جميع الموانع في طريقه إلى العالم الآخر.

في طريقه إلى العالم الآخر توقف عند جبلين يرتطمان، فألقى لهما بالتميمة التي أعطتها له الغولة، فسمحا بالمرور. وبعد ذلك وجد أمامه ثورين ينتطحان، أحدهما أبيض والثاني أسود، فقف بنفسه فوق ظهر الثور الأبيض مثلما دلته الغولة، فحمله إلى بلاد الجن، حيث يوجد الدواء. عند باب قصر الجن وجد أمامه صورة أسد يظهر وكأنه يستعد لالتهام كل من يريد دخول القصر، فتقدم منه وقلع أسنانه التي تمثل مفتاح الباب، وذلك حسب تعليمات الغولة - دائما -، وهكذا نجح في ولوج عتبة القصر. توجه بعد ذلك إلى الشجرة التي يبحث عنها، وقطف منها الورق المطلوب، وبينما هو يتسلقها أطل من إحدى

نوافذ القصر المحاذية لأغصان الشجرة، فرأى أميرة الجن ووصيفاتها الأربعين نائمات. فصاحبة القصر ووصيفاتها ينمن أربعين يوماً ويستيقظن مثلها، وكان على من يريد قطف أوراق "بسط الثعابين" أن يأتي في الأيام الأولى، وقد فعل "ابن المتروكة" ذلك، تطبيقاً لنصائح الغولة. دخل غرفة الأميرة، واستبدل خاتمه بخاتمها، وغير وضع المخدة فنقلها ووضعها تحت أقدامها.

في طريق عودته مر "ابن المتروكة" بأخويه، وأخذهما معه، لكنهما خدعاه، وأخذ منه الأوراق، وربطاه إلى شجرة ليأكله الأسد. مرت قافلة، فسمعت زئير الأسد، فاقترح عليهم شيخ حكيم كان من بينهم أن يقوم باستبعاد الأسد عن ضحيته، ويقوم الآخرون بفك وثاق "ولد المتروكة"، وهكذا تم تخليصه من إيساره، فعاد متخفياً إلى بلده، وأصبح يعمل خادماً في محل صائغ. وكان أخواه قد عادوا إلى قصر أبيهما وادعيا أنهما هما اللذان حصلوا على الأوراق.

استيقظت أميرة الجن ووصيفاتها، وخرجن يبحثن عن دخل حديقة قصرهن، وقطف أوراق الشجرة، حتى تصل إلى الملك أبي الأخوة الثلاثة، فتختبر الشقيقتين فتكتشف ادعاءهما، وتطلب من الملك أن يستدعي جميع سكان المدينة لكي تختبرهم، لعلها تتعرف من بينهم على من دخل غرفتها واستبدل خاتمها. في نهاية القصة يؤتى بالشاب، الذي رفض العودة إلى قصر أبيه خوفاً على أخويه من العقاب، وتم استنطاقه والتعرف عليه، ثم زوج أبوه من أميرة الجن، وزوج وصيفاتها من أربعين من خيرة شباب المدينة، وجعله مستخلفاً له في شؤون الحكم.